الجرس الصوتي – دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن

المقدمة

من خواص اللغة الفطرية (الجرس الصوتي)، ويقصد به ((نوع من الموسيقى يوحي إلى الأذهان بمعنى فوق المعنى الذي تدل عليه الألفاظ))[1]، أو هو ((أن يأتي مسموع الأصوات على حذو محسوس الأحداث))[2] واللغة العربية من اللغات التي تتماز بهذه الخاصية، ومن أوائل الذين تنبهوا اليها من القدماء ابن جني(393هـ)، في قوله: ((كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبرَّ بها عنها فيعدلونها بها ويحتذُونها عليها))[3]، وقال في موضع آخر: ((فإن كثيراً من هذه اللغة وجدْته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها ألا تراهم قالوا قِضم في اليابس وخِضم في الرّطْب وذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف))[4].

ولما كانت اللغة بشكلها الإجمالي أصواتا تستخدم للتعبير عن الحاجات والأغراض عند الناطقين بها فإن هذه الحاجات والأغراض مرهونة بلا شك بالانفعالات النفسية عندهم من حزن أو فرح أو غضب أو أي لون من ألوان التأثر، وإن مثل هذه الانفعالات قد تؤدي ((بالباعث الصوتي على توليد الكلمات أو الأصوات إلى ما يكاد يكون اعتقادا غامضا في وجود مطابقة خفية بين الصوت والمعنى))[5]. وربما يكمن سر جمالية الجرس في هذه المطابقة الخفية إذ إنه يعد ((قيمة حسية في الألفاظ، فهو شديد الخفاء، ولكنه أسرع نواحي الجمال في الشعر إلى نفوسنا))[6].

وإذا ما حاولنا التماس (الجرس) أو الدلالة الصوتية في ألفاظ القران الكريم وقفنا على حقيقة راسخة وهي إن القرآن الكريم قد ناسب بين أصوات ألفاظه، ومعانيها مناسبة عجيبة لفتت الأنظار، وأذهلت العقول حتى كأن اللفظة القرآنية ((تكاد تستقل – بجرسها ونغمها – بتصوير لوحة فيها اللون زاهيا أو شاحبا وفيها الظل شفيفا أو كثيفا))[7]. اذ وظف المبدع – جل وعلا– ((الجرس الموسيقي للكلمة وما تحويه من ظلال للمعاني في إثراء معنى الكلمة، والايحاء بمضمونها قبل ان يوحي مدلولها اللغوي به))[8]

ولعل ألفاظ غريب القرآن الكريم خاصة كانت ميزاناً رحبا لمن أراد ان يقف على الدلالة الصوتية للألفاظ، ومن خلال العودة إلى المباحث التي كتبها الدارسون القدماء والمحدثون في هذا المجال وجدت أن جل امثلتهم إن لم تكن جميعها كانت من ألفاظ غريب القران، ما يعطي تصوراً إن العلماء الذين كتبوا في الغريب كانت الدلالة الصوتية بما تبعثه من إشعاع جمالي من معاييرهم التي اعتمدوها في تصنيف الألفاظ الغريبة.

ومن اجل ذلك كله سوف أقف على نماذج مختارة من تلك الألفاظ ومناقشتها مناقشة تحليلية معتمدة آراء الدارسين فيها.

أولا: جرس الإدغام:

1– اثّاقلتم[9]: قال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض)** (التوبة / الآية 38).

جاءت هذه الآية في خطاب للمؤمنين والمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك على وجه العتاب لتباطئهم في إجابة الدعوة إلى الجهاد[10]. وربما جاء التعبير في قوله (اثاقلتم) على هذه الصيغة تحديدا من أجل المبالغة في تصوير التباطؤ والتقاعس عند هؤلاء النفر، وكذلك لما تؤديه هذه اللفظة من صورة معبرة عن الحال التي هم فيها، ((إذ يتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل))[11].

واثاقلتم في الأصل (تثاقلتم)، ((فإذا وصلتها العرب بكلام، ادغموا التاء في الثاء لأنها مناسبة لها، ويحدثون الفا لم يكن ليبنوا الحرف على الإدغام في الابتداء والوصل، وكان إحداثهم الألف ليقع بها الابتداء ولو حذفت لأظهروا التاء لأنها مبتدأة))[12]. والحقيقة

(1) التوجيه الأدبي د. طه حسين وآخرون 137.
(2) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د. محمد زكي شادي 28 .
(3) الخصائص، ابن جني 2 / 159.
(4) الخصائص 1 / 66.
(5) دور الكلمة في اللغة، ستفن اولمان 81.
(6) جرس الالفاظ د. ماهر مهدي هلال 20.
(7) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح 334.
(8) لغة القران – دراسة توثيقية فنية – د. احمد مختار عمر 141
(9) ينظر: تفسير غريب القرآن المجيد، للإمام زيد بن علي (ع) 108، وتفسير غريب القرآن، لابن قتيبة 140، وتفسير غريب القرآن، لابن الملقن 135.
(10) ينظر: البحر المحيط، لابي حيان 43/5
(11) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب 91.
(12) معاني القران، للفراء 1 / 437.

إن جرس هذه اللفظة بما تحمله من ثقل في النطق جعلها تكون أكثر ملاءمة لمعنى النص فهي ((تعبر عن نفس مثقلة بحب الحياة، رضيت بالدنيا بديلا عن الآخرة، وتصور ظلال هذا المشهد الحي، وقد ألصقت بالأرض، وتثاقلت عليها بمقدار ما تحمله الأرض من أثقال))[1]. والذي يبدو أن ما أسهم في إظهار هذا المعنى في هذه اللفظة المفردة هو التشديد على الثاء ((فإذا علمنا أن للتشديد عنصرين أولهما ثاء ساكنة والثاني ثاء متحركة... أحسسنا للسكون الذي في العنصر الأول إيحاء بالإخلاد إلى الأرض وعدم الرغبة في الخروج إلى للجهاد، مما يدل على أن الصوت يحكي الفعل أو على الأصح عدم الفعل))[2] وكذلك فإن النطق بالثاء يلتصق طرف اللسان بالثنايا العليا، ولما تكرر الصوت نفسه على التوالي صار الالتصاق أشد مما لو كان غير مكرر، وهذا بدوره يوحي بشدة تقاعسهم وخلدهم إلى الأرض كما أن المقطع الصوتي الأخير من اللفظة نفسها (تم) قد أسهم هو الآخر في تخيل الصورة فأنت حتى تسمع هذا المقطع يتبادر إلى ذهنك وكأن شيئا ثقيلا قد وقع على الأرض فأحدث هذا الصوت، كما ان صوت المد الذي جاء في وسطها جاء ليصور ((أن هذا التثاقل لا يتحرك ولا يمتد إلا في مكانه))[3]، إذ إن البنية المقطعية لها هي (إثْ ثّا قلْ تم) جاءت لتشعر بالثقل في أولها ثم جاء صوت المد ليعطيها شيئا من الحركة والخفة وكأنما هو دعوة للنهوض، إلا إن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما تعود إلى الثقل نفسه في المقطعين الأخيرين، ومن ثم فإن الثقل يطبع هذه الكلمة الأمر الذي دعا سيد قطب الى أن يرى ((أن في هذه الكلمة طنا على الأقل من الأثقال ! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها))[4].

وبذا تكون قد تضافرت أصوات هذه المفردة على رسم مشهد أولئك الذين خصتهم الآية المباركة رسما دقيقا حتى كأننا نراهم رأي العين، وقد أسهم ثقل الصيغة في الوصول إلى الإيحاء بالمعنى المطلوب فضلا على إنه منح النص إيقاعاً عذبا في موضعه جذب الانتباه وشد المتلقي إليه بما يحمله من طاقة جمالية وقدرة على التأثير.

2- ادّارأتم[5]:

ومن ألفاظ الغريب التي جاءت على هذه الصيغة (ادّارءتم) في قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّرَأْتُمْ فِيهَا واللَّهُ مخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة / الآية 72). فقال: (ادارأتم) والأصل (تدارأتم) والمعنى ((اختلفتم واختصمتم فيها))[6]، ولو تأملنا اللفظ وحاولنا التماس الدلالة الصوتية فيه وما أثاره الإدغام من إيحاء بالمعنى المطلوب وقفنا على صورة معبرة لا تختلف كثيراً عما مر بنا في (اثاقلتم) إلا من جهة المعنى. فالمعنى في (ادارأتم) يبعث في الذهن صورة مَن خصتهم الآية الكريمة وهم في حالة شديدة من الاختصام والاختلاف، وهذه الشدة في الحال جاءت لتحاكي شدة الفعل وهو القتل، فلو جاء التعبير بقوله (تدارأتم) لكانت الدلالة الإيحائية أقل شدةً، ومن ثم لا يكون هنا معادل لشدة الفعل وعليه فإن الادغام جاء استجابة للمعنى والموسيقى، إذ إنه أفاض على النص بشحنة موسيقية صاخبة منسجمة مع سياق القوة والعنف والتهديد الذي جاء به النص الكريم.

3- ادّاركوا[7]:

قال تعالى: (كلَّمَا دَخَلَت أُمَّةٌ لَّعَنَت أُخْتهَا حَتى إِذَا ادَّارَكوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَت أُخْرَاهُمْ لأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضلُّونَا فَئَاتهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكلّ ضِعْفٌ ولَكِن لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف / الآية 38). فقال: (اداركوا) والأصل تداركوا، والمعنى تلاحقوا[8]، أما وظيفة الإدغام – هنا – فقد تمثلت في اعطاء دلالة الفعل سرعة في الحركة، فكما هو معلوم لدينا أن الأفعال تدل على الحركة والاستمرار كما أن الأسماء تدل على الثبوت والاستقرار. ولما جاء الفعل على هذه الصيغة المدغمة أعطى تصورا عن الحال التي تلاحقوا فيها فكأنما كان بعضهم إثر بعض على وجه السرعة ولاسيما أن الموقف الذي هم فيه هو موقف حشر وحساب وشدة، فجاءت شدة الادغام لتحاكي شدة الموقف.

4- يطَّوَّف[9]:

(1) دلالات الظاهرة الصوتية في القران الكريم. خالد قاسم بني دومي 238، وينظر: الإعجاز الفني في القرآن. عمر السلامي 105.
(2) البيان في روائع القرآن – دراسة لغوية اسلوبية في للنص القراني – د. تمام حسان 287.
(3) دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم 239.
(4) التصوير الفني 91.
(5) ينظر: غريب زيد 47، وغريب ابن قتيبة 54، ومعجم غريب القرآن، لابن قطلوبغا الحنفي 298، ومعجم غريب القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي 55
(6) تفسير الكشاف، للزمخشري 1 / 143، وينظر: تفسير مفاتح الغيب، للرازي 3 / 132، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمشقي2 / 179، والجامع لاحكام القرآن، للقرطبي 2 / 193.
(7) ينظر: غريب زيد 97، وغريب ابن قتيبة 167، ومعجم الحنفي 298، ومعجم عبد الباقي 55
(8) ينظر: اللباب، لابن عادل الدمشقي 9 / 108.
(9) ينظر: غريب ابن قتيبة 66، ونفس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، لابي جعفر الخزرجي 199

قال تعالى: [إِنَّ الصفَا والمَرْوَةَ مِن شعَائرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْت أوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطوَّف بِهِمَا ومَن تَطوَّعَ خَيراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ]. (البقرة / الآية 158). فقد قال (يطَّوَّف) والأصل يتطوف وقد ((قلبت التاء طاءً، وأدغمت في الطاء، فاحتيج إلى همزة وصل لسكون أوله لأجل الإدغام فأتى بها فجاء مضارعه عليه (يطَّوَّف) فانحذفت همزة الوصل لتحصن الحرف المدغم بحرف المضارعة، ومصدره (التطوّف) رجوعا إلى أصل (تطوف)))[1]، وتفسير الآية يشير إلى أن المسلمين كانوا يتحرجون من الطواف بين الصفا والمروة، لأن الناس في الجاهلية كانوا يتطوفون بهما عراةً، فجاء النص الكريم ليرفع عنهم الحرج في ذلك.

واذا عدنا إلى المرتكز الصوتي في هذا اللفظ وهو الطاء لوجدنا أنه النظير المفخم للتاء[2]، وهذا يشر إلى أن قلب التاء طاءً كان من جهة المعنى من أجل التفخيم ليناسب شدة الأمر الذي هم فيه، فهم في حال بين الإقبال على الطواف والإدبار عنه.

والحقيقة أن هذا الأسلوب ورد تكرارا في القرآن الكريم، فقد ذهب الدكتور فاضل صالح السامرائي في معرض حديثه عن قوله تعالى (تطيّرنا) في سورة يس / الآية 18، (اطّيرنا) في سورة النمل / الآية 48، إلى أن ((التطير في النمل أشد مما في (يس)، بدليل أنهم قالوا في (يس) ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ فهددهم بالرجم والتعذيب. أما في النمل فقد أقسموا وتعاهدوا على قتله وقتل أهله. ومعنى ذلك أن التطير بلغ عندهم درجة أكبر واشد مما في يس، فجاء بما فيه زيادة مبالغة))[3]. وقد أورد أمثلة أخرى كثيرة على هذا.

وما أضفى على قوله تعالى (يطَّوَّف) قوة في الإيحاء ما يتمتع به صوت الطاء من صفات، فقد جمع بين الإطباق والشدة والانفجار، وهذه الصفات كلها تصبُّ في بودقة المعنى واظهاره من خلال أصوات اللفظ.

وبذلك يتجسد لنا ما في الدلالة الصوتية من طاقات إيحائية و جمالية، وقدرات فائقة على التأثير تتجاوز حدود الموسيقى وفنية الأداء لتدخل في روعة التعبير.

5- سيطَّوقون[4]:

قال تعالى: [ولا يحْسبنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ هُوَ خَيراً لَّهُم بَلْ هُوَ شرٌّ لَّهُمْ سيُطوَّقُونَ مَا بخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وللَّهِ مِيراث السمَوَاتِ والأَرْضِ واللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (آل عمران/ الآية 180).

سيطوقون بمعنى أنهم سيحملون عقاب ما بخلوا به، أي سيجعل الله لهم طوقا من نار يوم القيامة [5]. والحقيقة إن هذا اللفظ كان أكثر ملاءمة لمثل هذا المعنى ((لما فيه جلية على التضييق والحصر والملازمة التي لا مفر منها، عندما يقرأ القارئ هذا اللفظ يبرز صوت الطاء واضحا وجليا فيحس فقوة انطباقه عليه))[6].

كما ان صوت السين الذي جاء في أول اللفظ هو من الأصوات المهموسة التي من إيحاءاتها إثارة الروع في النفوس بما فيه من همس خفي، عمق لدى المتلقي الاحساس بشدة الموقف واقتراب العذاب فهي – كما نقل القرطبي عن المبرد – سين الوعيد أي: سوف يطوقون[7].

ولعل طول هذه اللفظة التي تشكلت من ستة مقاطع صوتية جعلت المتكلم عند نطقها يشعر بضيق نتيجة اندفاع الهواء من الرئتين بشكل متوال مما يشعر بالاختناق وكأن هذا الطوق لف على أعناقهم دون سائر أعضائهم.

فالجمال الفني في هذا اللفظ قام على أساس معايير الانسجام والتلاحم والتناسق بين المعنى والتركيب اللفظي المعبر عنه، وهذه قد انعكست على الجانب النفسي للمتلقي فقد اعطته طاقة تأثيرية جعلته يعيش حالة من التوتر وهو يتخيل صورة ذلك الطوق.

6- يُدَعُّون[8]

قال تعالى: [يَوْمَ يُدَعّونَ إلى نَارِ جَهَنّمَ دَعاً] (الطور / 13).

الدعُّ هو الدفع بالظهر بعنف، و ((ويدعُّون، أي: يُدفَعون دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة من كل مَن يقيمه الله لذلك، ذاهبين ومنتهين إلى نار جهنم، وهي الصبغة التي تلقاهم العبوسة والكراهة والتغيظ والزفير))[9].

(1) اللباب 3 / 97.
(2) ينظر: علم الأصوات كمال بشر 250، و الأصوات العربية بين التحول والثبات د. حسام النعيمي 74.
(3) بلاغة الكلمة في التعبير القرآن، د. فاضل صالح السامرائي 54 .
(4) ينظر: غريب ابن قتيبة 116، والغريبين في القرآن والحديث، للهروي 1187، ومعجم عبد الباقي 127
(5) ينظر:المحرر الوجيز، لابن عطيه 547/1.
(6) اللفظ القرآني بين المفهوم الدلالي والبعد البياني، فاطمة عبد الأمير، (رسالة ماجستير) 73.
(7) ينظر: تفسير القرطبي 438/5.
(8) ينظر: غريب زيد 245، وغريب ابن قتيبة 124، وغريب ابن الملقن 410
(9) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي 10/19.

وقد جاء لفظ الدعّ بجرسه الشديد ليصور الدفع في الظهور في ذلك الموقف الرهيب الذي يقف فيه الكفار أمام هول النار، وطغيانها، فلا تساعدهم أرجلهم على السير رهبةً وفزعاً ((فتدفعهم الزبانية في أعلى ظهورهم مما يوازي صدورهم ومن شأنه ذلك يُسمَع لصدره صوت غير إرادي يتكون من هذا المقطع (إع)، ولهذا كانت هذه الكلمة مصورة للمعنى بجرسها ورنينها))[1]، إذ إن صوت الكلمة وموسيقاها يُسهِم في إظهار جزء من معانيها الدقيقة الخفية وذلك عندما ((يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف، أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده لكنه محسوس))[2]، ولعل الملاءمة كانت واضحةً في هذا اللفظ، فالعين من الأصوات الحلقية الرخوة المجهورة التي تمتلك قيمة تعبيرية كبيرة في تصوير مشاعر التوجع والتألم.

كما إن مجيء الفعل مبنيا للمجهول أعطاه شدة وقوة من مجيئه مبنيا للمعلوم، فمتى ما كان الفاعل مجهولاً كان الأمر أشد وطأة على الذي يقع عليه الفعل، لأن في ذلك إشارة إلى قوة خفية أحدثت الفعلَ.

علاوة على ذلك فإن صوت الضمة في أول الفعل يعد من الأصوات الثقيلة، فلو جاء الفعل مبنيا للمعلوم لكان حركة أوله الفتح ولمّا كانت الدال مفتوحة فإنه سيكون توالي لصوت الفتح، وهذا سيعطيه سهولة وخفة، إذ إنه إذا ((توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت))[3]، وعليه كان لثقل الصوت في الضمة ومن ثم بناء الفعل للمجهول إسهاما في استشعار روح الشدة في (الدعّ). ولعل مجيء المفعول المطلق (دعّاً) زاد ((في تأكيد ما للفظة من قوة في التصوير والنطق والإيحاء))[4].

أما في قوله تعالى: (فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيْمَ) (الماعون / 2) فقد جاء اسم الإشارة (ذلك) في موضع الضمير (هو) ليعطي للفعل قوة في التعبير والإيحاء، ففيه دلالة على التحقير أو الإشعار بعلة الحكم[5]، فلو كان التعبير هنا بالفعل (يزجر أو يدفع) لاستعمل الضمير معهما دون اسم الإشارة.

والحقيقة إن جرس اللفظ ووقع تأليف الأصوات فيه كان من أهم المنبهات المثيرة للانفعال النفسي عند المتلقي ولاسيما في تحفيز مخيلته كي ترسم صورة معبرة عن إحداث الفعل، فجماليته إذن كانت منبعثة من جوانب نفسية أثارها الإيقاع العام للفظ الذي تمثل أولاً: في الموسيقى الناتجة من ترابطه مع غيره من الألفاظ – المفعول المطلق في الآية الأولى، اسم الإشارة في الآية الثانية – وثانياً: في توافق أصواته مع دلالته.

7- ثجّاجا[6]:

قال تعالى: (وأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَتِ مَاءً ثجَّاجا) (النبأ / 14).

ذهب المفسرون إلى أن معنى الثجّ: الصبّ والتدفق بكثرة و ((ثجاجا: أي متدفقا، ويقال ثجاجا: سيالاً، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله): (أحب الأعمال إلى الله عز وجل العجُّ والثجُّ) [7]، فالعج التلبية، والثجّ إسالة الدماء من الذبح والنحر))[8].

إن التركيب الصوتي لهذا اللفظ يتكون من ثلاثة مقاطع صوتية، الأول: مقطع طويل مغلق / ث ـَ ج /، والثاني والثالث مقطع طويل مفتوح / ج ـً / ج ـً /[9]، أما أصواته فهي ثلاثة (الثاء والجيم والمد الطويل)، والذي يحمل البحث على عرض البنيات الصوتية الصغرى والمقطعية لهذا اللفظ ما فيها من دلالات تصب في عمق المعنى وفي بعده الإيقاعي.

فالثاء صوت ينتج عندما طرف اللسان بالقواطع العليا سامحا للهواء المزفور بأن يمر من خلال مجرى ضيق، فتسمع حفيف عند النطق به ناتج عن احتكاك الهواء بالمجرى[10]، وهذا الحفيف كأنما يبعث إلى السمع صوت الماء المتدفق. والجيم صوت مجهور انفجاري، ومعلوم أن صفتي الجهر والانفجار يناسبان إلى حد ما شدة التدفق وذلك لأن التدفق بشدة يُحدِث أصواتاً أثناء المرور أو

(1) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم، 266.
(2) قواعد النقد الأدبي لاسل كرومبي 34.
(3) المثل السائر، ابن الاثير 193/1.
(4) دلالة الظاهرة الصوتية في القران الكريم 242.
(5) ينظر: روح المعاني 30 / 242.
(6) ينظر: غريب زيد 293، وغريب ابي قتيبة 508، وغريب ابن الملقن 521، ومعجم الحنفي 281
(7) ينظر الحديث في المستدرك للحاكم النيسابوري 1 / 450، 451.
(8) نزهة القلوب، للسجستاني 66-67، وينظر: روح المعاني للآلوسي 11/30.
(9) ينظر: التطور اللغوي رمضان عبد التواب 63، وينظر: بنية المقطع في القران الكريم 10.
(10) ينظر: علم الأصوات د. روعة محمد 61.

الوقع على الأرض، وأما الادغام فقد أسهم في إظهار قوة هذا اللفظ على سبيل المبالغة فهو على زنة (فعّال) وهذا الوزن من أبين صيغ المبالغة في العربية.

أما تكرار المقطع الصوتي المفتوح مرتين في اللفظ، كأنما هو جاء استجابةً للتساقط المتكرر والمتسارع لحبات المطر من السحب.

والذي يعطي مناسبة أكثر لهذا اللفظ في موضعه هو العدول عن ذكر لفظ السماء بذكر (المعصرات)، فالعصر من الألفاظ التي توحي بالشدة، والتي ينتج عنها رد فعل شديد ما جعل اللفظ يحقق انسجاماً وترابطاً نصياً.

فكل هذه اجتمعت في اللفظ لتجعل من التعبير به يرتقي الى مستوى التعبير الجمالي، إذ عمّق في النفس شدة الاحساس بالمعنى بما فيه من قدرة تعبيرية عجيبة.

ثانيا: جرس التضعيف:

لقد وردت مجموعة من الألفاظ القرآنية التي تناولها أصحاب الغريب في مصنفاتهم رباعية مضعفة، أي إن أولها وثالثها من جنس، وثانيها ورابعها من جنس آخر، وقد توزعت هذه الألفاظ، فمنها ما جاء على صيغة الفعل الرباعي المضعف وهو الأكثر شيوعاً، ومنها ما جاء على صيغة الاسم الرباعي المضعف.

ولما كان للتضعيف أثرٌ في إذكاء الدلالة الصوتية لهذه الألفاظ فقد ارتأى البحث أن يعرض لبعض منها بالتحليل والمناقشة.

1- زحزح [1]:

قال تعالى: (كلُّ نَفْس ذَائقَةُ المَوْتِ وإنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ومَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَعُ الْغُرُورِ) (آل عمران / الآية 185).

إن المعنى في قوله تعالى: (فمن زحزح عن النار) هو التنحي والإبعاد، فمن نُحيَّ عن النار وأُبعِد منها فقد فاز [2]، وإنما جاء التعبير القرآني عن هذه التنحية والإبعاد بلفظ (زحزح) من دون غيره من الألفاظ لما في هذا اللفظ من القوة في التعبير عن المعنى المقصود الدقيق، وقد اكتسب هذا اللفظ قدرته التعبيرية من جهتين: الأولى من جهة صوت الزاي الذي تكرر مرتين في اللفظ، ومعلوم لدينا أن هذا الصوت هو من الأصوات الصفيرية المجهورة الذي يصاحبه حدوث زفير يخرج من الأوتار الصوتية عند النطق به[3]، ما جعل هذا اللفظ يكون أكثر مناسبة في تصوير ((مشهد الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه))[4].

أما الثانية فمن جهة تكرار المقطع الصوتي، فاللفظ تكون من تكرار المقطع الصوتي الطويل المغلق نفسه الذي تكون من (صامتين بينهما مصوت قصير)[5] (ز ـُ ح) + (ز ـِ ح) وهذا التكرار في حقيقته أعطى للبنية الصوتية داخل التركيب بعداً إيحائيا قام على أساس ((رصد العلاقة المتضمنة بين الشكل والدلالة)) [6]، وعليه فإن البنية الصوتية هنا التي قامت على التكرار المضاعف جاءت مكتنزة بالدلالة ما يجعل المتلقي يستطيع الوقوف عليها بأدنى تأمل.

فضلا على ذلك كله فإنه يمكن استشعار الانفعالات النفسية لدى المعنيين بالنص الكريم، وهم في حال الزحزحة عن النار، فهم ـ كما يبدو ـ بين حالين من الشدة والرخاء، أما الشدة فقد جاءت من قربهم من النار وكأنما ما زال في نفوسهم خوف منها، وقد جاء صوت الزاي الصفيري المجهور ليعادل هاجس الخوف لديهم، وأما الرخاء فقد جاء من دنوهم من الجنة واستبشارهم بها، وقد جاء صوت الحاء المهموس ليعبر عن تلك الحال.

2- زُلزِلوا [7]:

قال تعالى: (هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شدِيداً) (الأحزاب / الآية 11)، ذهب بعض المفسرين في تفسير هذا النص الكريم إلى ان الابتلاء هنا جاء بمعنى الاختبار والتمحيص ليعرف المؤمن من المنافق و (زلزلوا) بمعنى حُرِّكوا وخُوِّفوا، أما (زلزالا) فتعني تحريكا شديدا[1].

(1) ينظر: كتب غريب ابن قتيبة 116، والتبيان 134، ومعجم الحنفي 308
(2) ينظر: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آل القران) 7 / 452.
(3) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية، محمد حسن حسن جبل 125.
(4) مباحث في علوم القرآن 335.
(5) أبحاث في أصوات العربية د. حسام النعيمي 9، وينظر: بنية المقطع في القرآن الكريم 10.
(6) البنى الأسلوبية، حسن ناظم 98
(7) ينظر: غريب زيد 198، وغريب ابن قتيبة 348

(1) ينظر: الكشف والبيان للثعالبي 8 / 19، وروح المعاني 21 / 211.